

وقفه مع كتاب الإسلام
للمؤلف بيتر هاينه
ترجمة أسامة الشحماني
(٢٠١٢)



ولد البروفسور الألماني بيتر هاينه Peter Heine في العام ١٩٤٤. درس الثقافة الإسلامية، وعلوم الانثروبولوجيا والفلسفة في جامعتي مونستر، وبغداد من ١٩٦٥-١٩٧١. نال درجة الدكتوراه عن أطروحته في تاريخ ممالك المسلمين في السودان في العصور الوسطى، ثم حصل على لقب الأستاذية في جامعة مونستر العام ١٩٧٨. أفرد العديد من البحوث والدراسات والكتب التي انصرفت لتاريخ الثقافة الاجتماعية في العالم العربي، فضلاً عن تتبع وتحليل الظروف السياسية والاجتماعية الحديثة في العالم الإسلامي، ومنها كتابه: الإرهاب باسم الله، الإسلام المتطرف، ٢٠٠١. عمل هاينه أستاذاً للدراسات الشرقية في جامعات مونستر وبون وزيورخ، وكان أستاذاً لكرسي الثقافة الشرقية والتاريخ الإسلامي في جامعة هومبولت الألمانية من العام ١٩٩٤ إلى ٢٠٠٩. يدير منذ العام ١٩٩٣ مركز الدراسات الشرقية الحديثة في برلين، والذي كان أحد مؤسسيه.

إنّ الحديث عن النشاطات العلمية التي تناول

ثم يعرج على مصطلحات الكتابة ومن ثم نرجسية «العصبية» الصغيرة، فعدي بن زيد العبادي، والحكاية الشعرية والبحور المترجمة، وهو في كل مبحث من هذه المباحث يعود بنا إلى الجذور السومرية والبابلية والآشورية، مثلما يتحدث عن موسوعية شاعر الحيرة عدي بن زيد، ويستنتج أن بحر الهزج هو تعريب من وزن رباعي التفاعيل في الفارسية كنموذج لما ذكر. وفي مبحث استقدام شعراء البادية يعدد أسماء الشعراء الذين قدموا للحيرة، ويرى أن السبب هو قوة الكلمة وتأثيرها على قبائل الشعراء لضمان سيطرة الحيرة.

وجاء الفصل السابع والأخير بعنوان «الملحمة الضائعة»، حيث ينتقل المؤلف من السومريين ليصل إلى فترة الحيرة التأسيسية، متسائلاً: هل ثمة ملحمة عربية ضاعت خلال عملية المحو التي تمارسها كل مرحلة تأسيسية جديدة؟.

قراءة باسم فرات

بها المستشرقون الألمان الإسلام، لاريب، معقدٌ في محاوره متعددٌ ومتشعبٌ في اتجاهاته، إلا أنَّ علاقة الألمان بالبحث في موضوعة الإسلام بشكل عام هي علاقة شكل تباين المظاهر وتعدد المواقف من الإسلام والمسلمين فيها ظاهرة لافتة أقل ما يمكن أن نصفها به هي أنها ملتبسة تتأرجح بين الانبهار بالبنية التكوينية لهذا الدين وما أنتجته من نظم معرفية وقيم كونية، والتعجب غير البريء أحياناً من عمق علاقته بالأنساق والظواهر الاجتماعية والسياسية وتأثيراته المباشرة في تشكيل حياة الإنسان على مستوى الفرد والجماعة. على أنَّ صورة الإسلام في الثقافة الألمانية تأثرت بعد الاضطراب العالمي الذي تمخض عن أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر إلى درجة عالية لم تسلم منها بعض البحوث والدراسات العلمية التي جافى أصحابها الالتزام بمقتضيات البحث العلمي، فلم تكن بمنأى عن التحيزات المستمدة من آفاق غير موضوعية لم تتوان عن حشر صورة هذا الدين بكل ما له صلة بالعنف والإرهاب والتخريب وما إلى ذلك من المواقف المتشددة.

بيتر هاينه هو أحد البحاثة القلائل الذين عرفوا بعمق اطلاعهم على اللبنة الأساسية للإسلام، وكرسوا جلَّ حياتهم لخوض غمار البحث في التناقد الثقافي المتبادل بين الشرق والغرب والسعي لإثبات المشترك أو العام عبر الاشتغال على مناقشة العوامل التاريخية الثاوية وراء الأقطاب والبنى الفكرية المتجاذبة في المجموع الإبراهيمي الموحد للديانات الكبرى اليهودية والمسيحية والإسلام. وقد عني في عددٍ من بحوثه

ودراساته بالمنشأ الديني للمفاهيم السياسية، وبالهدف النقدي والتقويمي للمعرفة المعاصرة بالإسلام من خلال الوقوف على الأسس النظرية التي أنتجت هذه المعرفة، ومحاولة تخليص العقل الغربي من بعض الأحكام التعسفية التي أسستها بعض الكتابات المتحاملة.

في كتابه «الإسلام»، يعنى بيتر هاينه بتقديم أهمّ المفصل التاريخية التي شكلت الحراك الفكري والسياسي والثقافي في الإسلام. ويتبعُ منهجاً علمياً يقوم على الفصل بين ما هو ديني متعلق بالبنى والمركرات العقائدية والشرعية، التي يقوم عليها الدين الإسلامي، وبين ما هو اجتماعي متأسس في العقل الجمعي، الخاضع بطبيعة الحال لمكونات الهوية الثقافية وما ترتكز عليه من أراضيات. ويتلمسُ القارئ للكتاب، في السياقات المختلفة لتحليل المراحل التاريخية التي مرَّ بها الإسلام، معرفة حقيقية عميقة ورصينة بواقع الثقافة الإسلامية، فضلاً عن الحرص على تناول الإسلام بشكل متكامل غير مقصور على طائفة أو منظور معين. ويبني هاينه معرفته لتاريخ الحضارة الإسلامية، فضلاً عن نقده لبعض الموروثات التاريخية في المجتمع الإسلامي بطريقة حيادية لم ترجح ثقافة على حساب أخرى، وما انفكَّ يحرص على إقصاء كل ما يخضع لاعتبارات انطباعية تدخل في دائرة المواقف الذاتية. وتغلب على الكتاب في سعيه الدائب لفهم مميزات الإسلام، منذ ظهور الدعوة وانتشارها وما أفرزته، صفتان مميزتان الأولى هي أنَّه يومئ، تصريحاً أو تلميحاً، إلى ضرورة مواجهة واقع الاختلال الثقافي

بدراسة الإسلام، ولذا نجد يردُّ في غير موضع على التصورات الغربية الخاطئة عن الديانة الإسلامية واقعاً أو تاريخاً، على أن هذا لا يقوده بالضرورة لتبني موقف المتضامن أو المتحمس، لاسيما أنه لا يغضُّ النظر عن تشخيص عناصر الجمود على صعيد النمو والتطور لدى المسلمين، وانتقادها بحدة.

من جهة أخرى تخترق نسيج كتابه، على اختلاف المحاور التي يناقشها، تحليلات حرص فيها على عقد صلات واضحة بين الديني والسياسي، وقد ركز على ما انطوى عليه الإسلام السياسي من مواقف ووقائع متغيرة حيناً ومتضاربة أحياناً أخرى. ولعل من المفيد هنا الإشارة إلى موضوعتين أسهمت في منح البحث رؤية رحيبة وإكسابه دفعة قوية على مستوى تحليل الوقائع التي فرضتها التحولات السياسية، أما الأولى فتتعلق بتقدمه لأهم المفاصل الفكرية في التراث الإسلامي ورفع اللبس عن معالم هذا التراث، الذي يكتنف مادته الكثير من الغموض في العقل الأوروبي. وقد أشار إلى أهم عوائق الاقتراب من موارد الطاقة الرمزية في الفكر الإسلامي بقوله «إن تضيق أفق النظر إلى الصراعات لا يسمح بالضرورة بأن يسلط الضوء على منظومة الإسلام الدينية والثقافية، ويتولد الانطباع لدى المرء وكأن الإسلام لا يوجد غالباً إلا في مناطق التوترات، وكأن تاريخه عبارة عن سلسلة من النزاعات الحربية بين طوائفه أو مع الديانات والثقافات الأخرى. لذا يحدث استنتاج متعجل هو أنه ينبغي التفتيش في الدين عن أسباب هذه النزاعات. وتختزل الأحكام الشرعية

وتصحيح الصورة القاصرة أو المغلوطة التي ارتبطت بالإسلام بعد المنعطف التاريخي الكبير الذي خلفته أحداث أيلول وامتدت تأثيراته لتشمل جوهر التفاهم بين العالم الإسلامي والغرب، وفي هذا السياق استهل مقدمته بالقول: «لا تكاد تخلو نشرة أخبار أو إصدار لجريدة ما من خبر يتناول الإسلام بشكل أو بآخر. وفي سياق تعامل وسائل الإعلام مع الأخبار تُختزل زاوية النظر تجاه هذا الدين ومعتقيه لتصبح بالضرورة على الأحداث الراهنة، فتكون النواحي السلبية تحديداً، أو لنقل القضايا الإشكالية في هذا الدين العالمي، هي بالذات محط اهتمام الرأي العام» (ص ١٣).

والثانية هي تناوله بالدراسة والتحليل النشاط العقائدي الإسلامي على وفق رؤية تجمع بين القراءة العقلية المبنية على النظر في النصوص كبنى لغوية خالصة منعزلة عما يخالطها من حمولات تاريخية، والأخرى الروحية التي تضع لكل زمان قوامه المختلف والمتميز عن سواه في فهم وقائع الدين والوحي الإلهي. ومن المناسب في هذا المقام الإلماع إلى أن من بين ما يتسم به كتابه أيضاً هو الابتعاد عن التحفظات المشوبة بالحذر، تلك التي تعترى غالبية الكتاب حين ينبرون لرصد بعض الأصداء أو الاستجابات المتنافرة التي تتبلور في ساحة الفكر الإسلامي إزاء إشكاليات وتحديات عصر الحداثة. وفي الوقت ذاته لم يكن المؤلف منصرفاً لتشديد نقاط الاختلاف أو القطيعة بين الثقافة الإسلامية وسواها من الثقافات، كما أنشأ رهط غير قليل من الدارسين الغربيين الذين عنوا

يعرض الكتاب أحياناً عن ذكر بعض التفصيلات، أو يقوم بطيها بين ثنايا النص، وعلى الرغم من كونه يقدم الآراء الفقهية والقضايا الخاصة بالتشريعات من دون أن يرجح أحدها، إلا أنه، وفي غير مرة، يختار منها ما لا يجد مناصاً من إذاعته وتفصيل القول فيه، وقد أشار لهذه المنهجية بقوله «يعرض الكتاب مبادئ الإسلام وعقيدته وثقافته وواقعه الاجتماعي. ويستكمل ذلك من خلال اقتباسات لنصوص وشهادات وأقوال أصلية عديدة من مواطن جغرافية ولغوية مختلفة على امتداد أربعة عشر قرناً من التاريخ الإسلامي. ويحاول أن يُحلحل وجهة النظر الضيقة تجاه الإسلام، ويتحقق ذلك من خلال التوسع العلمي لفهم الظواهر الدينية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والفنية، التي تشاهد في العالم الإسلامي» (مقدمة الكتاب).

يمكننا القول بالمحصلة إن كتاب بيتر هاينه «الإسلام» يندرج ضمن البحوث العلمية المبنية على أسس المنهج التاريخي، سعى المؤلف فيه لإعادة قراءة واستيعاب الإسلام، الذي يشهد المجال الثقافي الألماني اهتماماً ملحوظاً به في ظل المتغيرات السياسية والثقافية التي تحدثت في العالم. ويشكل الكتاب من جانب آخر أرضية خصبة ومدخلاً حديثاً للبحث في أطياف شتى من «التجربة الدينية» في الثقافة الإسلامية، ويمكنه أن يضرر الرغبة في نفوس عدد واسع من المختصين لأن يجنوا ثماره في دراسات وبحوث أخرى.

مجلة الكوفة

الإسلامية لتقتصر على أحكام العقوبات، والفرائض الإسلامية على فريضة الجهاد، وفي قواعد السلوك الاجتماعي حسب التعاليم الإسلامية تصبح مكانة المرأة المتأخرة في السلم الاجتماعي هي الموضوع المفضل، الذي يتم الحديث عنه». (مقدمة الكتاب) وأما الثانية فتجلت في اهتمامه بشكل خاص بركايز حركة الإصلاح والتجديد في العالم الإسلامي ومنها المقاصد والتوجهات التي تضمنتها جهود جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده من أجل إعادة صياغة الأفكار والمواقف الدينية وبلورة ما يقرب الدين من مفهوم الاتساق الجواني مع الذات وبعده عن فكرة التشدد في التزام المظاهر الخارجية غير الخاضعة للمراجعة والتعديل.

تقوم الاستراتيجية البحثية التي اتبعتها هاينه في معالجة قضايا العقيدة الإسلامية على الإقلاع بمستوى البحث إلى درجة عالية من الاستيعاب الشامل لأهم المحركات والفواعل في تاريخ الإسلام منذ بواكير الدعوة وانتشارها وصولاً لما أفرزته من نظم تشريعية «قانونية» وسياسية واجتماعية، ومفاهيم فلسفية كبرى. ومن هنا كان ملتزماً بالتمعن العميق في الأبعاد الثقافية التي كرستها أحكام الدين الإسلامي، ونجح في كثير من الأحيان في أن يقرب للمتلقى الغربي فلسفة الإسلام للمواقف والأنماط الفكرية والسلوكية ذات العلاقة بالسياق الثقافي الأوروبي عبر التغلب على المعضلات المتصلة بتفسير بعض آيات القرآن الكريم، المتعذر فهم مقاصدها خارج المنظومة القيمية للعقل العربي. وقد